الجمع واذا صدقت الرواية عن مناظرة الهمذاني والخوارزمي وانشائهما تلك الرسائل والقصائد في الجلسة التي كانا فيها كانت من اجل الدلائل على وفور عقليهما وحضور خاطريهما حيث يريدان . ولكن الرواية عن المتنبي تكون اصدق على الارجح فانه كان ينظم القصائد والمقطعات الكثيرة في حضرة جلسائه من الامراء والملوك فكانت تأتي بجملة نظمه حين انفراده بل كان كثيراً ما ينظم وهو سكران في مجلس سيف الدولة وسواه فلا يخطئ له قصد ولا تضطرب له حالة

وقد روي عن العلامة المرحوم الشيخ ناصيف اليازجي انه كان نادرة في هذه الاحوال فانهم حدثوا عنه ان خاطره لم يكن يضطرب اقل اضطراب مهما كثرت حوله الاحاديث واشتدت الاصوات بل كان يكتب وينظم كانه بمعزل عن الوجود وليس من حاضر لديه غير فكره يوجهه الى حيث يريد كما انه لم يكن يمحو شيئاً مما يكتب بالاطلاق بل كان المعنى والقالب اللفظي يحضران في حين واحد على وفق ما ينبغي فلا يضطر للمحو او تفضيل صورة على صورة حتى لقد رووا عنه انه انشأ مقامة تامة من مقامات مجمع البحرين وهو مسافر من بيروت الى قرية في لبنان دون ان يكتب منها شيئاً في الطريق فلما وصل الى القرية كتبها كلها كما تمثلت له

اما كتابنا الحاضرون فلا ندري لاحد منهم خلقاً او عادة في انشائه لان كل عادة تصلح لهم وكل حالة توافقهم وذلك لان اكثرهم يكتبون مضطرين غير مختارين مما يكتبون شيئاً فقد ينشئ الواحد منهم مقالة حين مسيره في الطريق ويكتبها حين تجوله في النزهة وكثيرين منهم لا تحضرهم المعاني الاوهم على اسرتهم لان مشاقهم في النهار تحول بينهم وبين صفاء اذهانهم

ولو رجعنا الى كل مؤلف كتبه منشئونا او قصيدة نظمها شعراؤنا لما وجدنا واحدة منها أنشئت في مكان واحد او على كيفية واحدة مع ان اكثر كتابنا وشعرائنا الحاضرين يعدون في درجات عالية من فنون المشتغلين بها . ولو كانت بلادنا كبلاد الافرنج لرأينا لكل واحد منهم قصراً وعرفنا له خلقاً وعادة وكنا ننقل الان عنهم ما يغنينا عن النقل لاحاديث سواهم ولكنهم الان رماة في حرب الآداب العربية وقد قدموا اول الصف وربما انتصر اعقابهم لان تقليدنا للافرنج لم يخطئ بحالة من الحالات فلعل نجاحهم يكون من جملة التقليد

حيرة الاغنياء

اذا كان الفقر الشديد مما يحير الانسان ويضيق عليه مذاهبه حتى لقد يصيبه بالكسل المفرط من شدة حيرته وضيق اخلاقه او يمنيه بالمخاطرة والتعب الشاق لتحصيل قوته وكفاية يومه فكذلك الغنى المفرط قد صار يعد مثله لان عظم الثروة وتناهي الاقتدار مما يصاب صاحبهما بالحيرة حتى لا يهتدي في حياته الى سبيل بل قد يصيبه بالكسل في طلب الملذات حتى لا يعود يستطيع ان يوجه همته الى شيء منها او يصيبه بالجهد الشاق في سبيل التماسها واختراعها وبذلك تكون شدة الغنى مشابهة لشدة الفقر لان كلتيهما قد ابعدتا صاحبيهما عن الراحة

ولقد كان الغنى شائعاً بين الناس على نسب مقبولة في التدريج فكان كل غني متطلباً لابعد من حالته وارقى من درجته واجداً في سعيه لذة وناظراً بعد جهده مأمولاً . واما في هذا العهد الذي كثرت فيه اسباب الثروة الفجائية وامكن معه الغنى الطائل على اثر الاكتشافات والاستنباطات العديدة فقد عظم المال ونما عند بعض الافراد حتى صارت وسائل انفاقه على انشاء المسرة منه معدودة تعباً شاقاً كتعب الفقير في التحصيل واصبح المثري ذو القناطير من الذهب اذا لم يجد ميداناً يجيل به امواله ويستدني المسرات لنفسه محسوباً بمنزلة الفقير المدقع الذي اعياه التحصيل وخانته المقادير ولذلك وجدنا بعض الاغنياء العظام اذ قد امتنعت عليهم خلقة المسرات الجديدة صاروا يجودون باموالهم جوداً فاحشاً وغدا الواحد منهم يبذل في يومه عن طوع واختيار مقدار ما كان يرده في يوم من طريق الظروف والاقدار فكان ذلك كانه لذة جديدة له تعادل اللذة الاولى التي كان يجدها حين الانفاق على نفسه واجتلاب ما يرضيها . وهي حالة جديدة لم تكن معهودة من قبل الا لدى افراد من الملوك وقد خرجت الان باصحابها عن حدود المحسنين المتقربين لله الى حدود المجتهدين المحتالين على اللهو وشفاء ما في النفس من الوجدانات الا انها على كل حال صفة معدودة من اجل شروط الاحسان لان نتيجة المعروف قد صدرت عنها ومقصود البر قد جاء منها

وقد عقد احد الكتاب فصلاً في ارباب الملايين وما وصلت اليه حالتهم من الحيرة بغناهم فقال ان كل موجودات الترف والنعيم التي تصنع الان من اجل اصحاب الملايين خاصة انما هي تصنع من اجل الملايين وحدها وليس من اجل اربابها اي ان العقد النفيس قد صار يصنع من اجل ان ينال ثمنه فقط لا

ان ينال تأثيره من نفس لابسته لان ذلك لم يعد الان سبب لهو وسرور للمتحلية به بل هي تشتريه وتسر به بمقدار ما يسر الفقير بقميص اشتراه او سيكارة يشربها فان الفقير لا يعد ما اشتراه مغنماً امكنه الوقوع عليه لانه قد الف ما يشتري وتلك ايضاً لم يعد العقد لها لكثرة ما اعتادت التحلي بامثاله . وعلى هذا يعد صادقاً ما قيل من ان تلك المصنوعات هي للملايين ذاتها وليست لاصحاب الملايين وبهذا استوى محض الغنى بالفقر حقيقة لان ما دون التحلي بالعقد او سكنى القصر الباذخ انما هو مألوف ادنى من هذا المألوف في نظر الغني فلا يقال مثلاً انه لذ ونعم لو اكل وشرب وساح وركب المركبات وطاف الملاعب بل يقال انه عاش فقط . والذي يصح عن هذا الغني فيما يشتري ويتنافس به يصح أيضاً في الذي يكسبه ويزيده على ماله لان الخمسين مليوناً لو صارت خمسة وخمسين لا تزيد في شعور ذاك الغني ادنى زيادة بالاطلاق مع ان تلك الخمسة مما تغنى به مملكة . وكل هذا لان موجودات الدنيا الحاضرة المطلوبة من الانسان قد صارت في نظره ومبلغ اعتباره اقل مما كان بين يديه اولاً فالزيادة على هذا لا تكون الا مبعدة للامل عن نيل المأمول لانه اذا كان المليون مثلاً لم يجد له مساغاً ينصرف فيه فكم يكون الاكثر

ومعلوم ان الشعور بالغنى لا يكون في الاغلب الا بما يقع تحت الحس فاذا جلس الغني على كرسي ثمنه عشرة جنيهات مثلاً فانه يشعر ولا ريب بانه منعم ولكن لو جلس على كرسي ثمنه مئة جنيه فان النعيم لا يزداد له بمقدار تلك الزيادة في القيمة او لا تكون زيادة اصلا . فالنعيم اذن قد كان هنا اشبه بالوهم وهو موجه للمال كما قلنا وليس لصاحب المال

ثم ان الملذات المحسوسة الحقيقية قد فاضت على الدنيا في هذا العصر

فيضاناً عمها كلها تقريباً حتى لم تعد ثم منافسة وتفاضل بين الغني والذي دونه فان الغني لو ركب مركبة تجرها عتاق الجياد فان من ادنى منه بكثير يستطيع ان يركب مثلها على حالة تدني احدهما من الآخر دنواً غير كائن بين درجتي غناهما . وكذلك اذا اكل الغني او شرب وسكر ولبس فان هذا يجده مستطاعاً ميسوراً على مثل حالته ممن هو دونه بكثير في الغنى ولهذا امتنعت مسرة الفضل الحقيقية الا من جهة شعور نادر يعرض للغني احياناً بانه اكثر من سواه مالاً وهو شعور لا يدني مسرة ولا يوجد لذة . ثم لقد زاد امتناع التفاضل لهذه الحرية المطلقة للجميع فان الغني بعد ان كان يلذ وينعم بظلم سواه مطاوعة لشيمة نفسه ويعتز بان غناه عاصم له عن العقوبة اصبح الان وهو مساو لافقر فقير له ماله وعليه ما عليه . وعلى هذا صارت كثرة الغنى التي تعدو المطلوب من جهة حاجتي النفس والجسد معدودة كأنها في حد العدم واصبحت في يد صاحبها كأنها سيف مرهف لا يجد مضرباً او هي عدة سيوف معدة لضربة يكفيها سيف واحد

بقي ان هذا المال الزائد عن حد الغنى المألوف قد صار اشبه بالمضايق لصاحبه او اشبه بالارض الواسعة للفلاح الواحد يرى نفسه بها غنياً في الظاهر ولكنه لا يستطيع زرعها كلها ولا هو بمحتاج اليها كلها . او هو قد صار كالمطر الوارد لطالبه عن عفو ولكن لابد لتصريف فضلته من جهد والا غشي الارض واضرها . وهذه هي الحالة التي ترد نعيم الغنى الظاهر الى شقاء خفي وتجعل الغني يحتال في الانفاق كما يحتال الفقير على التحصيل

على ان هذا الشعور ليس وارداً عن تمثيل من الفقير لحال الغني بل هو وارد من عند الاغنياء انفسهم وهم الذين قالوا هذا القول ونشروه الكتاب

عن السنتهم . ولما كان المروي عنهم منطبقاً على شعور الضمائر والوجدانات كان حقيقة محضة دون ريب وكان هذا الغنى الفاحش معدوداً كفلتات الطبيعة التي تستهجن توستكره ولهذا وجدنا من وقعوا في هذه « المصيبة » يحاولون التخلص من زائد غناهم بكل وسيلة فترى الواحد منهم اذا كانت نفسه لم تخلق لتطاوعه على اصطناع المعروف في حياته وبذل المال لوجه الله فانك تراه يوصي به ليتفرق بعد مماته على افراد يعينهم من ذوي قرابته او خدامه واعوانه كأنه يريد بذلك ان يستعير لذة سواه حين اعجزه انشاء اللذة او اكثارها لنفسه . وترى غيره يرسل امواله ارسالاً في طرق المعروف ووجوه الخير فيفتح المدارس ويشيد المستشفيات ويجازي العلماء الى مثل ذلك من المنافع التي يتناولها الجموع ولكن صاحبها يشعر بانه قد نال اللذة بها من كل من مسته واصابته فيخلق السرور لنفسه خلقة وينشئ راحة الضمير لذاته انشاء . وهذا معدود من اشرف خصال الخير واطيب ما يوجده المرء لنفسه من الطباع لان كثيرين من الاغنياء يجنون من فرط احتيالهم على الخير فيضرون بمعروفهم او يجعلون انفسهم سخرية في كيفيات ما يبذلون فيصبح احسانهم عقيماً او بعيداً مناله . كأن يشترط الواحد منهم في هبته مخاطبة اهل النجوم او منع الكذب بين الناس او اغراءهم بالاديان ودخول المعابد ولكن امثال هؤلاء قليلون الان وان في اوروبا واميركا لعدداً وافراً ممن تناهت بهم الثروة وهم الان من اركان شعوبها والمعادلين باحادهم لالوفها وبعضهم قد عرّف نفسه بانه يكون ملعوناً لو مات غنياً . على ان الثروة لم تصل في بلادنا الى الحد الذي بلغته هناك من حيث الكمية ولكنها بالغة ولا شك من حيث القياس الى مقاديرنا ومبالغ مطالبنا الا اننا لم نسمع للان بمن ضاقت اخلاقه من

غناه كما ضاقت خزائنه بذهبه وعسانا لا نسمع لان ليس كل رجالنا كمن نصف بل كفانا ان يكون زائد الثروة شائعاً بين الجميع وان يكون عندنا الغنى المقبول المألوف لان السعادة الحقيقية وهي القناعة مشهورة بيننا وقشرة الجوزة كما قال «همات» تسع كل واحد منا وحسبنا الله وكفى

الامبراطورة فريدريك

انتقلت الى رحمته تعالى في الخامس من هذا الشهر المرحومة الفاضلة الامبراطورة فريدريك صاحبة هذا الرسم ووالدة جلالة امبراطور المانيا وشقيقة جلالة ملك انكلترا وقد كانت رحمها الله على جانب عظيم من الفضل والنباهة تمتاز بهما على كثيرات من فضليات النساء ولا سيما في الشؤون السياسية فانها كانت تتعرض لها تعرضاً يعد نادراً من المرأة حتى انها لما تزوجت بالمرحوم فريدريك امبراطور المانيا الماضي رغبت ان تكون امبراطورة المانيا وليست قرينة الامبراطور ولهذا انشأت لنفسها اعداء كثيرين في كل بلادها وكان اخص اعدائها البرنس بسمارك فانه ما انفك عن معاداتها حتى مات وقد كان مبدأ هذه العداوة انها كانت انكليزية محضة مع ان الواجب عليها ان تكون المانية . الا انها مع كثرة اشتغالها بالسياسة وتعرضها لمناصبة الاحزاب لم تكن تنفك عن السعي الشديد في تحسين حال المرأة الالمانية حتى اوصلتها الى ابعد درجة من التهذيب والحرية النسائية التي لم تكن معهودة في المانيا قبلها ولهذا كان بسمارك يقول عنها على شدة عداوته لها انها احدى النساء الثلاث الحاذقات اللواتي رآهن في حياته . الا ان شدة حذقها في شؤون الملك والسياسة لا يعد شيئاً لدى حذقها وبراعتها في العلوم والفنون ولا سيما فن التصوير الذي اشتهرت به شهرة فائقة حتى جارت فيه الصناع الحاذقين . وقيل ان احدى صورها قد بيعت بمبلغ الف وخمسمائة جنيه وهو اجل دليل على تمكنها من ذاك الفن ووصولها منه الى الدرجة القصوى رحمها الله